**المحور الأول**

**الحواضر الكبرى في غرب إفريقيا**

**تمهيد:**

إن الاطار الجغرافي المعني هنا بالدراسة هو المنطقة الممتدة من الحواف الجنوبية للصحراء الى غاية منطقة السفانا جنوبا، و من المحيط الاطلسي الى غاية بحيرة تشاد شرقا، اما زمنيا فنخص بالدراسة الفترة الممتدة من القرن 11 الى غاية القرن 16م، فلقد عرفت هذه المنطقة بعض المراكز التاريخية و الحضارية التي كان لها تاثير كبير في تاريخ المنطقة، وذلك بسبب احتضانها لمراكز سياسية و عواصم ممالك عريقة و امبراطوريات قوية، بالاضافة الى تحولها الى مراكز اشعاع فكري و ثقافي.

عرفت هذه المنطقة الإسلام منذ القرن الحادي عشر للميلاد/5هجري، عن طريق التجار الاباضيون أولا، حيث استقر التجار الاباضيون و حتى صفريو سجلماسة في أهم المراكز التجارية في بلاد السودان من اجل جلب ذهب السودان المجلوب من الأدغال الإفريقية، فاحتكوا بكبار تجار إفريقيا الغربية و ملوكها، و تمكنوا من فرض انفسهم في تلك المجتمعات بفضل حسن سيرتهم و صدقهم و أمانتهم و حسن تدبيرهم حتى ان البكري خلال القرن العاشر يذكر ان ملك مالي الوثني كان يستعين بهم في تدبير شؤون دولته، فعين منهم الكتاب و الأمناء و الوزراء، كما خصص لهم مدينة بأكملها للجالية الإسلامية بعاصمته تضم اثنتي عشر مسجدا فيه الراتبون و القراء و الأئمة و المؤذنون و حملة العلم)**[[1]](#footnote-2)**(.

و تمكن هؤلاء التجار إذا من إقامة جاليات إسلامية عملت على نشر الإسلام في تلك الأراضي الإفريقية، فتحولت تلك المراكز التجارية مع مرور الوقت إلى حواضر علمية بسبب تجمع العلماء و الفقهاء، ثم بناء المساجد التي تحولت إلى مراكز تعليمية و جامعات إسلامية و مراكز إشعاع للعلم و الثقافة **([[2]](#footnote-3))**.

**أولا: أهم الحواضر التاريخية و العلمية في غرب إفريقيا:**

**أ. الحواضر لغة:**

ان كلمة حواضر لغة هو اسم جمع مفرده حاضرة، و تعني القوم الحضور، فنقول حضَر البدويُّ: أقام واستقرّ فلم يعد يترحّل. و بهذا فهي تعني مكان تجمع السكان الحضر أي عكس البادية، و هي بالمعنى الحديث تعني المدينة.

فالحواضeverywhereر التاريخية الافريقية هي تلك المدن الو التجمعات السكانية التي احتضنت في تاريخها مراكز سياسية و تجارية و ثقافية، مما جعلها مراكز اشعاع للعلم و الثقافة في غرب افريقيا.

**ب. اهم الحواضر:**

**1. تنبكتو:**

تعد مدينة تنبكتو حديثة النشأة مقارنة بغيرها من المراكز الأخرى، إذ يعود بناؤها إلى أواخر القرن الخامس للهجرة/ 11م، على يد قبائل التوارق المعروفين باسم (مقشرن)**[[3]](#footnote-4)**، الذين بنوها في مكان يبعد بتسعة أميال عن نهر النيجر،**[[4]](#footnote-5)**. ولقد اصبحت المدينة بفضل موقعها المميز تستقطب التجار والعلماء وأصحاب الأموال من مصر، و فزان، وغدامس، وتوات، ودرعة، وفاس، وغيرها**[[5]](#footnote-6)**. فبعد أن كانت في البداية مجرد مخيم للشتاء قرب النيجر، تطورت بعد ذلك كمركز تجاري، وعوضت ولاتة التي كانت تلعب هذا الدور قبلها، حيث كان الفضل للملك منسا موسى في تحويلها من مجرد مخيم بسيط للبدو من الطوارق خلال القرن الخامس للهجرة / 11 م، وبقيت مجرد نقطة تتزود فيها قوافل الملح بالماء، وذلك رغم موقعها الإستراتيجي في أعلى منعطف النيجر، وبقيت مجهولة، ولم تثبت بناياتها إلى غاية القرن التاسع للهجرة 14/ م ([[6]](#footnote-7)**)** عندما قرر منسا موسى الى اعادة تهيئتها فأصبحت بفضله أشهر مدينة في السودان الغربي، فبدأ بإعادة بناء المسجد القديم لتنبكتو ليكون أكثر ملاءمة لإمبراطورية كبيرة كمالي، فبنا في موضعه المسجد الكبير بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين قبل ذلك،**([[7]](#footnote-8))** كما عرفت توافد السودانيين من كل جنس، فتكونت جالية من التجار الذين طلبوا الحماية من زعماء مالي**([[8]](#footnote-9))**، فأصبحت على يد منسا موسى مدينة متطورة، و عين عليها دار الإمارة، بعد أن عمرها وجعل فيها الدكاكين والصناعات، وجلب إليها البنائين، حيث يعد المؤسس الحقيقي للمدينة و ذلك عام 610هـ/ 1213م (**[[9]](#footnote-10)**).

و لما ضمها الإسقيون الى مملكة سنغاي، اكتسبت مكانة تجارية اكبر و ذلك بفضل موقعها الممتاز في منحنى نهر النيجر، فأصبحت أقرب محطة سودانية للقوافل القادمة من المغرب، كما أن موقعها على النيجر جعلها حلقة اتصال بين تجارة المغرب وتجارة السودان، وخاصة تجارة الذهب والملح (**[[10]](#footnote-11)**).

كما احتضنت مكانة علمية و ثقافية بفضل السمعة التي نالتها جامعاتها مثل جامع جنجربير و جامع سيدي يحي التادلسي، و التي كانت تستقطب طلبة العلم و العلماء من كل حدب و صوب، و عرفت نهضة علمية قادتها بعض البيوتات العلمية مثل عائلة اقيت وعائلة بغيغ و عائلة اندغمحمد، فأنجبت لنا عدة مؤلفات و مؤلفين أشهرهم احمد بابا التنبكتي و عبد الرحمان السعدي، و محمود كعتي. حتى اصبحت اكثر شهرة من العاصمة جاو، و هو ما جعل المسكتشفون الاوربيون يتنافسون حول اكتشاف هذه المدينة الى ان اكتشفها روني كايي الفرنسي سنة 1828م و اطلق عليها اسم تنبكتو العجيبة.

**2. جني:**

يطلق عليها التجار الأفارقة اسم كناوة، بينما يسميها أهلها بجني، وهي أسم مدينة ومملكة في نفس الوقت، تبعد عن ولاته بخمسمائة ميل في الصحراء، وتمتد على طول نهر النيجر على مسافة مائتين وخمسين ميلا، ولها جزء على المحيط حيث يصب نهر النيجر(**[[11]](#footnote-12)**). لقد كانت مدينة جني في البداية تابعة لمملكة مالي ثم ضمتها مملكة سنغاي الى حاضرتها في عهد الملك سني علي، بعد حرب مع جيش مالي (**[[12]](#footnote-13)**).

ودخل أهل جني الإسلام خلال نهاية القرن السادس للهجرة/ 12م، وكان اسم السلطان الذي أسلم وأسلم أهل جني بإسلامه، هو (كنبر) الذي يحكي بأنه عندما عزم على دخول الإسلام أمر بجمع أربعة آلاف ومائتي عالم، وأسلم على أيديهم، وأمرهم أن يدعو الله تعالي بثلاث دعوات لتلك المدينة وهي:

1. « كل من هرب إليها و وجد في وطنه ضيقا وعسرا أن يبدلها الله له سعة ويسرا.

2. أن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها.

3. أن يسلب الصبر من الواردين إليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملكوا فيها فيبيعوها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها» (**[[13]](#footnote-14))**.

وبالفعل فقد أصبحت منذ القرن السابع للهجرة/ 13م، مركزا تجاريا مهما بفضل موقعها في ملتقي الطرق، بالإضافة إلى إحاطة المياه بها مما يحميها من غارات المعتدي، وبدأ أهلها يحققون أرباحا هائلة من تجارة القماش والنحاس والسلاح. ففيها كان يلتقي أرباب الملح القادمون من تاغزة، وأرباب الذهب من أودغست، فاستقطبت إليها التجار من كل الآفاق، حيث كانت أسواقها تدوم طول أيام الأسبوع، وكانت تستعمل فيها حتي القوارب لنقل الملح وسلع أخرى من تنبكتو إلى جني، وبالتالي أصبحت جني حلقة وصل بين تجارة الذهب وتجارة الملح**[[14]](#footnote-15)**.

**3. غاو:**

تناولت المصادر العربية اسم هذه المدينة باختلاف كبير، فنجدها كوكو عند الإدريسي وحسن الوزان، ويذكرها المهلبي بـكاوكو**[[15]](#footnote-16)**. وعلى كل حال فإن مدينة جاو تعد من أشهر مدن السودان، فهي تقع على ضفة نهر النيجر من جهة الشرق**[[16]](#footnote-17)**، وازدادت شهرة عندما أصبحت عاصمة مملكة سنغاي. فهي كانت تمثل بالنسبة لشعب سنغاي، ما كانت تمثله تنبكتو لغيرها من دول السودان الغربي، من نواحي الثقافة والتجارة والإدارة الحكومية**[[17]](#footnote-18)**. وقد اكتسبت تلك الأهمية بوجودها في أحد الطرق التي تربط مصر بغانة، وهو ما جعلها تشارك في ذلك النشاط التجاري الذي جلب لها الرفاهية. لكن ذلك الطريق الذي أهمل خلال القرن الرابع للهجرة / 10م، جعل جاو توجه تجارتها إلى الشمال من خلال تادمكة وتوات باتجاه المغرب، ومن خلال الهقار وغات باتجاه مصر**[[18]](#footnote-19)**.

**4. ولاتة:**

يصفها بن بطوطة، الذي يذكرها بايوالاتن، بأنها أول عمالة السودان، وأنها تبعد عن سجلماسة بمسيرة شهرين**[[19]](#footnote-20)**. ولعل هذا الموقع هو الذي جعلها مركزا تجاريا استقطب اهتمام التجار، ذلك أن تجار غانة الملقبين بـ(الونغارة)، هم من أسسها في مكان يدعي (بيرو)، وذلك عام 621هـ/ 1224م، مباشرة بعد نهب مدينة كومبي صالح**[[20]](#footnote-21)**.

وقد تم اختيار هذا المكان لأغراض أمنية، فوجودها على الحدود بين السفانا**[[21]](#footnote-22)** والصحراء الكبرى، وعلى بعد شهرين من سجلماسة، جعلها المدينة السودانية الأقرب من بلاد المغرب، كما جعلها هذا الموقع بمثابة مفترق طرق كثيرا ما يعبره التجار، وأهل السودان الذاهبون إلى الحج**[[22]](#footnote-23)**.

فولاته إذن تعد المحطة النهائية لعابري الصحراء، حيث عوضت الدور الذي كانت تلعبه أودغست المندثرة، والمسيطر على موقعها من طرف عرب المعقل الذين أصبحوا يشكلون خطرا على القوافل **[[23]](#footnote-24)**. وعندما زار ا بن بطوطة مدينة ولاته، وأقام بها خمسين يوما، كان زعيمها (فربا حسين) تابعا لسلطان مالي، والمدينة تابعة لإمبراطورية مالي، وكانت تحتوي على فنادق، ويتكفل بضيافة التجار المشرف الذي يدعى (منشا نجو)**[[24]](#footnote-25)**.

وبقيت على هذا الوضع إلى غاية الاستيلاء عليها من طرف الطوارق عام 838هـ/ 1433م، الذين فضلوا تطوير تنبكتو على حسابها**[[25]](#footnote-26)**، حتى إذا زارها حسن الوزان في بداية القرن العاشر للهجرة/ 16م، كانت مملكة خاملة بالنسبة لسائر ممالك السودان، وليس لها من الأماكن المسكونة إلا ثلاثة قرى كبيرة وأكواخ متفرقة بين حدائق النخل**[[26]](#footnote-27)**.

**5. تاكدا:**

اشتهرت تاكدا بإنتاج النحاس، الذي يستخرج من مناجمها فيحملون إلى بلاد السودان، بعدما يسبك على شكل قضبان في طول شبر ونصف**[[27]](#footnote-28)**. ولعل هذا المعدن هو الذي منح تاكدا أهمية تجارية، بالإضافة إلى موقعها في الطريق بين توات وغانة. فهي تبعد عن توات بسبعين يوما، فكانت القوافل تسير منها باتجاه بلاد بورنو حيث تجلب الجواري والعبيد والثياب وتصدرها إلى المغرب**[[28]](#footnote-29)**. كما كان أهل تاكدا يسافرون سنويا إلى مصر، ويجلبون منها الثياب الحسنة وغيرها، وهو ما انعكس بالرفاهية وسعة الحال على أهلها**[[29]](#footnote-30)**.

1. **() البكري (ابو عبيد )** ، المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب، و هو جزء من كتاب المسالك و الممالك، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، مصر، د ت، ص 175. [↑](#footnote-ref-2)
2. **() قداح نعيم**، افريقيا الغربية في ظل الإسلام ،مديرية التاليف و الترجمة لوزارة الثقافة و الارشاد القومي،مصر ، د ت، ص135. [↑](#footnote-ref-3)
3. **() السعدي (عبد الرحمان)، تاريخ السودان. طبعة هوداس، باريس 1964م، ص 20.** [↑](#footnote-ref-4)
4. **() البستاني (بطرس)، دائرة المعارف البستاني. بيروت، ،1886 مج 6، مادة تنبكتو.** [↑](#footnote-ref-5)
5. () ا**لسعدي**، نفس المصدر، ص 21. [↑](#footnote-ref-6)
6. ()ا**لسعدي**، نفس المصدر ، ص ـ 22. [↑](#footnote-ref-7)
7. **() Cornevin(Robert et Mariane),** Histoire de l’Afrique, des origines à la deuxième guerre mondiale,4éme éditions. Petite bibliothèque Payot, Paris, 1964*.* p164 [↑](#footnote-ref-8)
8. **() Canal (jeans suret)** , Afrique Noire. 3ème édition, éditions sociales, Paris, 1968, P181. [↑](#footnote-ref-9)
9. **() حسن الوزان**، وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، طبعة ثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983 م. **ص 165.** [↑](#footnote-ref-10)
10. **() الشيخ (**أمين عوض الله)، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتي نهاية ق16م،ص 82. [↑](#footnote-ref-11)
11. **() حسن** **الوزان،** المصدر السابق، ص 162. [↑](#footnote-ref-12)
12. **() قندوز قويدر**، الدولر الحضاري لمدينة جني ما بين القرنين 8و14ه/10 و 16م، مذكرة لنيل شهادة ماستر في التاريخ تخصص دراسات افريقية، جامعة الجيلالي بونعامة خميس مكليانة، السنة الجامعية 2016/2017م، ص31. [↑](#footnote-ref-13)
13. ()**السعدي،** المصدر السابق، ص 12. [↑](#footnote-ref-14)
14. () **الشيخ (أمين عوض الله)،** المرجع السابق، ص 84. [↑](#footnote-ref-15)
15. () يقول المهلبي: **«** بأن كاوكاو هو اسم شعب واسم مدينة سودانية في نفس الوقت **»**

    .Mauny (R) : Recueil des Sources Arabes. P 77 [↑](#footnote-ref-16)
16. ()**الإدريسي (أبو عبد الله الشريف)،**  القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس. مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، تحقيق: إسماعيل العربي.الطبعة الأولى، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983م.، ص 44 -، **ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى المغربي):** كتاب الجغرافيا. تحقيق إسماعيل العربي.الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982م، ص 93. [↑](#footnote-ref-17)
17. **() دافيد سون (بازيل)** : إفريقيا تكتشف من جديد. ترجمة، نبيل بدر وسعد زغلول، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، د.ت، ص 48. [↑](#footnote-ref-18)
18. )( **Mauny ( Raymond),** Les Siècles obscurs de L’Afrique noire. Librairie Fayard. 1970. P 167. [↑](#footnote-ref-19)
19. () المصدر السابق، ص 676. [↑](#footnote-ref-20)
20. ) (**Cuoq (Joseph)** **,** Histoire de L’islamisation de L’Afrique de L’ouest des origines à la Fin du XVIéme Siècle, Librairie orientaliste Paul Gauthner, Paris- 1984., p 90. [↑](#footnote-ref-21)
21. () **السفانا** هو إقليم نباتي، تنبت فيه الحشائش الكثيفة العالية، كما تنمو فيه الشجيرات القصيرة والأشجار الباسقة مكونة غابات مترامية الأطراف، لكنها أقل كثافة من الغابات الاستوائية. (روكز (يوسف): إفريقيا السوداء، سياسة وحضارة.ا لطبعة ثانية، 1986، ص 18. [↑](#footnote-ref-22)
22. **)(**Cuoq (J): Op. cit, P 91. [↑](#footnote-ref-23)
23. ()**ابن بطوطة(أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المتوفى سنة779هـ)،** تحفة النظار و غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (المعروف بالرحلة). دار صادر،بيروت ،لبنان،1992م، ص 676. [↑](#footnote-ref-24)
24. **()** نفسه، ص 676. [↑](#footnote-ref-25)
25. **()**Cuoq (joseph) , Op.cit, P 91. [↑](#footnote-ref-26)
26. ()المصدر السابق، ج2، ص162. [↑](#footnote-ref-27)
27. () ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 697. [↑](#footnote-ref-28)
28. **()الشيخ (أمين عوض الله**)، المرجع السابق، ص 84. [↑](#footnote-ref-29)
29. ()**ابن بطوطة**، المصدر السابق، ص 697. [↑](#footnote-ref-30)